العادة السرية[1]

للدكتور ابراهيم ناجي بك

العادة السرية قديمة جدًا ، وقد دلت النقوش في معابد بعض الأمم القديمة — كالصين — على أن مزاولة هذه العادة شيء يرجع إلى أقدم أزمنة التاريخ . وقد دلت الابحاث على أنها أمر شائع في الحيوانات عن امثالها ، شوهدت في الخيل ، والفيلة ، والمعز ، والغنم ، وأما في القرد فأمرها مألوف . ويقصد بالعادة السرية ، الحصول على الارواء الجنسي باليد ، بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، ويقصد بغير مباشرة الاستعانة بأشياء تشبه الأعضاء التناسلية . وقد فضل الباحثون أن يشمل التعريف أي « ارواء جنسي يزاوله شخص بمفرده » . . . . . واذا استعرضنا تاريخ هذه العادة على مر الاجيال ، علمنا أن سببين كبيرين أو بالاصح عاملين كبيرين كانا دائمًا السبب في شيوعها . الأول : عدم الحصول على الوسيلة الطبيعية والاشباع الجنسي بأي طريقة من الطرق . وأهم الموانع ، العزلة والبعد عن الرفيق ، أو وجوده مع صعوبة الحصول عليه . . . هذا هو السبب الأول ويمكن أن نسميه « الحرمان الجنسي » . . . . وأما السبب الثاني فانتشار الفساد وظهور الاضمحلال في أمة من الأمم . فان الفساد والاضمحلال يشجعان أولاً : باستباحة ما هو غير مباح ، وثانيًا : الاستكثار من وسائل اشباع اللذة ، امعانًا في السرور والشرف . والدليل على ذلك ما نعرفه من أمور الدولة الرومانية في انحلالها ، فقد انتشرت فيها هذه العادة ، وصارت مزاولتها علنًا سرًا لا عيب فيه . والأدهى أن حفلات الترف واللهو كانت تقام لتزاول فيها العادة السرية ، يزاولها الرجال لاشباع الرغبة الجنسية عن هذا السبيل . . .

المهم انني أعرض سببين لانتشار هذه العادة — الحرمان ، واضمحلال الخلق . . . —

(١) محاضرة ألقيت بالقسم النفاني بجمعية الشبان المسيحية بالقاهرة

أما الطرمان الجنسي ، فإني أجمله فيما يلي مختصراً ... لكما اننا نحب أن نسمي الطفل ... لا أكثر ، فإنه ... بل أن ... من أعراض ... أخرى ، فكذلك الطرمان الجنسي ... فيجب أن تبحث ... عنه ... يمكن ... لمعالجة أمور خطيرة ... فيجب ... أن نبحث ... عن الأسباب ... التي تصاحب الطرمان ، ما أسبابها ؟

هنا نستعرض حياة الطفل ، وحياة المراهق ، وحياة الرجل ... لكل من هذه المراحل وجهة خاصة . أما الطفل ... وقد شوهد أطفال ... يمارسون العادة السرية ... في شيئين يبدأ ... بإحساسه ... وجسمه ، ووالدته أو ... بأحد ما ... عند جلده ، ثم المناطق الحساسة التي بالجلد وخاصة الفتحات كالفم والشرج

فإذا تهيجت هذه المناطق بسوء الاستعمال ، بالمص أو ... بالأمراض (كالديدان) فنحن عند أول داع لكي يزاول الطفل هذه العادة ... هو التهيج المحض لا الجنس ... ولكن الأم ... ما دورها هنا ؟ انها تهجم على الطفل ، وهي تشتمه ما يفعله وتهدده بحرق يده ، أو بقطع عضو آخر ... لأنها تجهل ما يحدث أمامها ، وتظن أن ما يقوم به الطفل عمل جنسي لا يليق ، وتهديد الطفل ، يبدأ دور النواهي ، والمخاوف ، والعقد ، ودور الاحساس بالذنب Sense of guilt والأم الحساسة تعتقد أنها بهذه النواحي ، والتهديدات قد قضت وطرها ، أو قضت على العادة .

كلا بل انها بدأت بأحداث أكبر عقدة في حياة الطفل — ثم الرجل فيما بعد — ألا وهي الشعور بالذنب ...

إن هذا الشعور بالذنب يطوي مؤقتاً ، ولكنه دائماً في حاجة إلى ... التفكير ... عمل كثيرة منها عقاب النفس ، إما بالفكرة ، وإما بالعادة السرية ... وخاصة إذا ... الأم ... القطع فانه يحدث له ما يسمى بمركب ... Castration complex وهذا مركب يمارس عليه ... تأثيراً كبيراً ، وهو مركب مستقر ... الطفل ، يدور حول مخاوفه ... عن الأعضاء التناسلية ويؤدي إلى السعادة الجنسية ... التناسلية ولما كانت العادة السرية في طريقة مزاولتها ما هي إلا نوع من ... تعبيراً جميعاً حين دعوا العادة السرية « جلد عميرة » وهي في عرف علماء النفس ... من الاعتداء aggression or ... فقد اجتمع لنا في الطفولة ... جلد عميرة ، وخصية جلد اليد ، ثانياً تربية الاحساس بالذنب ، وما يتبعه من التفكير في الاعتداء على النفس وعقابها ...

عند ما يأتي دور المراهقة يكون الصبي قد أخذ يفهم ويبدأ السرور بالاعضاء الجنسي يستيقظ ويكون قد عرف اللذة الحسية . وكذلك ينشط الخيال عنده . إذ تنشط الغدد ، والصبي في هذا الدور الخيال . إذ ليس هناك اتصال جنسي بالمعنى المعروف ، وإنما كل ما يكون أمامه هي خيال يدور حول الجنس . . . وهنا يجيء دور الأم من أخرى وأقول الأم ، متناسيًا الأب لأنها هي التي عليها أن تتفق وتلاحظ لأن وقتها يتسع لها . أنها تلاحظ في هذا الدور تغيراً في صبيها وتلاحظ انه يحب العزلة والانفراد ، وتلاحظ انه يحاول أن يخفي عنها كتاباً يقرؤه ، أو صوراً يخبئها . . . وتلاحظ كذلك شحوبه ونحوله . ونحن نتصور هنا طفلاً تسير أم جاهلة في اعدات العادة السرية عنده بدون أن تقصد . . . قد صار مراهقاً الآن ، والأم تلاحظه . انها راقبته وقد عرفت سره . انها ليست أما جاهلة فحسب ، بل شديدة الرقابة ، شديدة الزجر ، متطرفة في عقائد دينية عنيفة . وهي من أجل هذا تخافه من الاختلاط ، وقد تحبسه وتضربه إذا لمحته في صحبة صبية قريبة . ولكنها أم على كل حال ، فهي قد ارتاعت لشحوبه ، وهي قد صممت على عرضه على طبيب لأنها رأته يزاول العادة السرية . ليس لدى الطبيب إلا أن يفحصه ، ويعطيه الدواء المقوي ويزوده ببعض النصائح . أما هي فتخبر أباه ، وقد تخبر أخاه الأكبر ، وقد يجتمعون ليؤكدوا له ان ما هو صارع فيه يؤدي إلى الجنون أو إلى العمى أو إلى الشلل . ويكون المسكين قد زاول هذه العادة خفية مدة طويلة قبل أن يكتشف . فيؤكد لنفسه أنه — حتماً — سائر إلى الجنون أو العمى أو الأمراض الخطيرة . فتضعف نفسه ، وتنهار ارادته ، ويظل تحت أسر العادة بدل أن يستطيع التخلص منها . . .

مسكين هذا الصبي الذي تحسبه تمارس هذه العادة لمجرد السرور الحادث منها !

كلا إن ما يجري ، كالشذوذ الجنسي ، كالتفضليات perfavers أي المسرات الحسية التي يفضلها الكثيرون من الطريق الطبيعي . . . انما يمارسها نتيجة لأخطاء قديمة في التربية المنزلية ، ولأخطاء في المجتمع المتملىء بالنواهي والحبل الجنسي الدائم ، ولأخطاء في الفهم حول هذا الموضوع . . .

عند ما يشب الصبي الذي يزاول العادة (الجنسية) فهو من اثنين إما أن تفعل العلاقات الطبيعية وتصرفه عن العادة ، وإما أن يستمر فيها ، وقد تحققت — كطبيب — أن استمرار رجل على العادة السرية ، يكون سببه دائماً مرضاً بالبروستاته ، أو للجزء الخلفي من مجرى البول يصيب العادة السرية . وان علاج هذه الأمراض كفيل بالشفاء لان مزاولة العادة السرية لمدة طويلة يحدث تهيجاً بالجزء الخلفي من مجرى البول يستثير الشهوة الجنسية

التي تدعو إلى العادة السرية ، التي تسبب بدورها اضطراباً وقلقاً . وعلاجي لها بسيط ، وهو الدياثري ، والتقاطير بتقوية القشة في الفترة الخلفية .

قد تكلمت عن الحرمان والعزلة ، وما يسببه الخجل الناشئ عن الخوف أو الخجل ، وأعني بالمجتمع القاسي المجتمع الذي سد باب التحليل ، وشهر عن جنسه أو عدم اكتراث تسمى الإلحاح الجنسي وقسوته . . . إن الدوافع التي يتأثر بها الشاب في بداية حياته الجنسية ، يكون في أول أدواره تحت القلق النفسي Anxiety . فالقرن الماضي اعتبر القلق نذيرة ، وألوانا من الندم والرغبة في التفكير والاحساس بالذنب ، تكرّس بها النفس فلا تملكته عادة فليس له من سبيل للتخلص منها ، لأنه قد فقد إرادته ، وكلما فقد إرادته صار عبداً لها ، وكلما صار عبداً لها زاد انفراداً بنفسه للحصول على لذة يسيرة منها ، وكان يحصل على اللذة السهلة أفرط فيها فأصابته أضرار الأفراط لا أضرار العادة . ولست من الذين يهولون أضرارها . ولو أني لا أميل الى التهويل . ان الأضرار النفسية إن لم تكن حادثة من العادة بالذات ، فانها مقترنة بها ، وأعني بذلك أن هناك نفساً مريضة ، أو مهيأة للمرض النفسي ، وقعت في أسر العادة السرية ، التي جاءت نتيجة المرض النفسي من عوامل أخرى ، فلدينا اذن حلقة ضيعة كما يقول الانجليز . . .

الخلاصة إننا يجب أن نعد المريض بالعادة السرية ، مريضاً نفسياً ، مريضاً يرغبنا علينا أن نخلصه منها فهل يكفي التخويف ؟ كلا انه يضر كما بينا ، هل يكفي أن نقول له إقلع ، وان يقول لنفسه في إصرار علي أن أقلع . . . علي أن أقلع ؟

كلا ان هذا لا يفيد . ان هناك قانوناً يقول : اذا تصارعت ارادة مع الخيال فاز الخيال ، وقد شرحت ان الخيال ، خيال المحبوبة ، وخيال صورته ، وخياله في أحضان الفكر . قل هذا كفيل بأن يقضي على الارادة ، فالمهاوة من أصلها .

اذن فما الطريقة ؟ وكيف السبيل ؟

أولاً : نفحص المريض جسمياً لنتأكد من عدم وجود مهيجات .

ثانياً : نفحص عقل الأم والأب لنعلم نصرفاتهما الخاطئة .

ثالثاً : نعتبر المريض بالعادة مريضاً نفسانياً جديراً بالتحليل

وهذا ما لا نستطيع عرضه هاهنا بعد رغبتنا نفسانياً ، ان نصرفها إلى حلال عادة صالحة مكانها ، فانا عادة تشغل وقت الصبي أو الشاب وأخيراً . . . لا بد من اجتناب العزلة ، لا بد من الدخول في زحام الحياة ، لا بد من الاختلاط والاشتغال بالعالم وأمره .